جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

النسق الاجتماعي في رواية السقا مات ليوسف السباعي

إعداد

د/ علي WangXiaotun
كلية الآداب/ جامعة الإسكندرية

(العدد الثامن والثلاثون)
(الإصدار الثالث .. أغسطس)
(١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

النسق الاجتماعي في رواية السقا مات ليوسف السباعي.

علي WANGXIAOTUN

دكتوراه كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مصر

البريد الإلكتروني: wxt1995918wxt@gmail.com

الملخص:

يندرج هذا البحث ضمن الجهود التي تسعى إلى مقاربة الأدب مقاربة سوسيولوجية، تركز على النسق الاجتماعي باعتباره مجموعة من العلاقات والأدوار والقيم التي تنظّم حياة الأفراد والجماعات داخل المجتمع، وتؤثر في سلوكهم وتصوراتهم عن الذات والآخر. وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن ملامح النسق الاجتماعي في الرواية، وتحليل تمثلاته من خلال الشخصيات، والمؤسسات، والعلاقات الأسرية، والطبقية، والطقوس اليومية، وما يرتبط بذلك من قيم العمل، والموت، والطفولة، والرجولة، والتدين الشعبي، وتتجلى خصوصية رواية السقا مات في أنها لا تكتفي بتقديم صورة خارجية للمجتمع، بل تغوص في أعماق البنية النفسية والثقافية لشخصياته، لتُظهر كيف تتشابك الأنساق الاجتماعية مع الوجود الإنساني في أبعاده الفلسفية والميتافيزيقية، حيث يحضر الموت بوصفه ثيمة مركزية تتقاطع مع معاني الحياة والكفاح والبقاء، كما تكشف الرواية عن ديناميات العلاقة بين الفرد والمجتمع، وتُظهر أثر النسق الاجتماعي في تشكيل السلوك الجمعي ضمن فضاءٍ شعبي نابض بالحياة والتناقضات، وعليه، يسعى هذا البحث إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية: ما ملامح النسق الاجتماعي في رواية السقا مات؟ كيف عبّر يوسف السباعي عن العلاقات الاجتماعية والطبقية والدينية من خلال الشخصيات والمواقف؟ وما دلالة حضور الموت بوصفه عنصرًا بنيويًّا داخل هذا النسق؟ سيتناول البحث هذه المحاور من خلال تحليل بنية الرواية وشخصياتها، ورصد التفاعلات الاجتماعية ودلالاتها، في ضوء المنهج السوسيولوجي، مع الإفادة من بعض المفاهيم الأنثروبولوجية التي تساعد في استجلاء البنية الرمزية للنسق الاجتماعي، كما تتجلى في هذا العمل الأدبي المميز.

الكلمات المفتاحية: النسق، الاجتماعي، رواية، السقا، يوسف السباعي.

The Social System in Youssef El Sebaei's Novel "The Water Carrier Died".

WANGXIAOTUN Ali
PhD, Faculty of Arts, Alexandria University, Egypt
Email: wxt1995918wxt@gmail.com

Abstract:
This research falls within efforts to approach literature from a sociological perspective, focusing on the social system as a set of relationships, roles, and values that organize the lives of individuals and groups within society and influence their behavior and perceptions of self and others. This study aims to uncover the features of the social system in the novel, and analyze its representations through characters, institutions, family and class relationships, daily rituals, and the associated values of work, death, childhood, masculinity, and popular religiosity. The uniqueness of the novel "The Water Carrier Is Dead" is evident in that it does not merely present an external image of society, but rather delves into the depths of the psychological and cultural structure of its characters, to show how social systems intertwine with human existence in its philosophical and metaphysical dimensions, where death is present as a central theme that intersects with the meanings of life, struggle, and survival. The novel also reveals the dynamics of the relationship between the individual and society, and demonstrates the impact of the social system in shaping collective behavior within a popular space pulsating with life and contradictions. Accordingly, this research seeks to answer the following questions: What are the features of the social system in the novel "The Water Carrier Is Dead"? How did Youssef El Sebaei express social, class, and religious relations through characters and situations? And what is the significance of the presence of death as a structural element within this system? The research will address these themes through an analysis of the novel's structure and characters, observing social interactions and their connotations, in light of the sociological approach, while drawing on some anthropological concepts that help clarify the symbolic structure of the social system as it appears in this distinctive literary work.

Keywords: System, Social, Novel, Al-Sakka, Youssef El-Sebaei.

مقدمة:

تُعد الرواية مرآة عاكسة لواقع المجتمع وتحولاته، إذ تُجسِّد عبر شخصياتها وأحداثها الأنساق القيمية والاجتماعية التي تشكل بنية الوعي الجمعي.

أسباب اختيار الموضوع:

تأتي أهمية دراسة النسق الاجتماعي في رواية (السقا مات) من منظور سوسيولوجي، بوصفها نصًا مفتوحًا على الحياة بكل تعقيداتها وتفاصيلها اليومية. وفي هذا السياق، تبرز رواية السقا مات للأديب يوسف السباعي نموذجًا ثريًّا لرصد التحولات الاجتماعية، وتفكيك البنية القيمية في حي شعبي قاهري مطلع القرن العشرين، عبر شخصية السقا المعلم شوشة، ومحيطه الأسري والاجتماعي.

الدراسات السابقة:

١. دراسة في النسق الاجتماعي في رواية الأستاذ لوداد معروف : د. سحر الشريف/ مصر
٢. النسق الاجتماعي في الرواية النسوية العربية (رواية لحظات لا غير) أنموذجًا،العزاوي حفصة ،المجلد ٦/ العدد٣/ديسمبر ٢٠١٩م
٣. النسق الاجتماعي في رواية– مملكة الزيوان–للصّديق حاج أحمد أنموذجا، عائشة جباري، ٢٠٢٤م
٤. النسق الاجتماعي في رواية أرض البطولات ، للكاتب عبد الرحمن باشا، أ. حسن عمر، مجلة بحوث جامعة حلب، المجلد الثالث / العدد الأول/ ٢٠٢٤م

منهج البحث:

سيعتمد الباحث على المنهج الوصفي التحليلي، القائم على جمع المادة العلمية المتعلقة بالموضوع، وتحليلها تحليلاً دقيقاً للكشف عن أبعادها الفكرية والفنية.

أضواء على الرواية

السقا مات : رواية اجتماعية واقعية، لها عبرتها القوية وحكمتها الخاصة ، فالسقا الذي يسقي الناس سر الحياة سيموت ، فلا تفاجئك النهاية ، ولكن في جميع أنحاء الرواية سترى حياة المعلم شوشة ، وابنه سيد ، وشحاتة أفندي ، وأم آمنة ، وبقية أهل الحارة ، كبارًا وصغارًا، وشجرة التمر حنة، سترى حياتهم مليئة بالحياة ، وعلى الرغم من الشقوق في المنزل الذي يعيش فيه شوشة وأمه وابنه سيد تبقى حياته مليئة بالحياة ، سترى بعيونك الدافئة تفاصيل الحياة الاجتماعية ، وطبيعة الناس ، ومن خلال نمط الحياة في أوائل القرن العشرين، سوف تعيش حياة الطفل ، سيد، الذي معه تعود المياه لشجرة التمر حنة ،سترى حياة الأطفال البسيطة في لعب البلي وكرة القدم، سيجعلك تحب الغداء من عند المعلمة زمزم وتكون غاضبا إذا كان الغداء (البطيخ والجبن).

سيجعلك تعيش حياة عم شوشة ، السقا الكادح ، الصابر علي الحياة المعافر فيها ، المتطير من الموت وسيرته ، ومع ذلك يستضيف عنده في بيته المتواضع شحاتة أفندي معدد الجنازات الذي يعطي الجنازة هيبة ببدلة الشغل كأفندي مهم، المبصبصاتي الكبير في السن ، صاحب المزاج واللحمة بأنواعها ، ستتنقل بين حياة وموت ، وموت وحياة، ستعيش الشغل واللعب والتعليم والحب .

ستكون متشائمًا من سيرة الموت ، مثل المعلم شوشة ، ثم ستفهمها من كلمات شحاتة أفندي وتقبلها ، ولكن قبل ذلك، أولا : سيتم مناقشة موضوع الموت في الرسالة ، حيث يرتبط بعلاقته الوثيقة مع حياة الإنسان ومعنى وجوده في أبعاده الفلسفية والاجتماعية والميتافيزيقية.

على وجه التحديد ، يؤكد الكاتب على البنية الأنثروبولوجية لازدواجية الموت والحياة ، فالكاتب استوحى الرواية من الواقع كإنسان مقدر له أن يموت ، مثل كل الكائنات الحية.

الميزة الرئيسية هي السيطرة على الموت في مفاصل الرواية ، وتمتد من الفضاء الورقي إلى الواقع البشري اجتماعيًا وعلى مستواه الشخصي.

وتتجلى خصوصية رواية السقا مات في أنها لا تكتفي بتقديم صورة خارجية للمجتمع، بل تغوص في أعماق البنية النفسية والثقافية لشخصياته، لتُظهر كيف تتشابك الأنساق الاجتماعية مع الوجود الإنساني في أبعاده الفلسفية والميتافيزيقية، حيث يحضر الموت بوصفه ثيمة مركزية تتقاطع مع معاني الحياة والكفاح والبقاء.

كما تكشف الرواية عن ديناميات العلاقة بين الفرد والمجتمع، وتُظهر أثر النسق الاجتماعي في تشكيل السلوك الجمعي ضمن فضاءٍ شعبي نابض بالحياة والتناقضات.

محاور البحث :

١. مظاهر النسق الأسري والعلاقات الاجتماعية في رواية السقا مات
٢. العلاقات داخل الحارة بوصفها امتدادًا للنسق الأسري
٣. العادات الاجتماعية والمهن التقليدية في بنية النسق الشعبي

سيتناول البحث هذه المحاور من خلال تحليل بنية الرواية وشخصياتها، ورصد التفاعلات الاجتماعية ودلالاتها، في ضوء المنهج السوسيولوجي، مع الإفادة من بعض المفاهيم الأنثروبولوجية التي تساعد في استجلاء البنية الرمزية للنسق الاجتماعي، كما تتجلى في هذا العمل الأدبي المميز.

أولًا: النسق في اللغة:

جاء في المعاجم العربية("النَّسَق" ، تقولُ على نسق واحد: على نمط واحد، سار على نسقه : منواله، أي حاكاه وسار على سيره. نَسَق الدر ينسقه نسقًا نظمه على السواء.

نسق الكلام رتبه وعطف بعضه على بعض على نظم واحد . نسق الشيء نظمه)[١] . النَّسَقُ إذن هو الترتيب المنتظم بين الأشياء.

وجاء في لسان العرب لابن منظور: "والنَّسَقُ من الكلام ما انتظم بعضه في أثر بعض على نسق واحد، والنَّسَقُ: ما يدل على تتابع في الشيء."[٢] ، وفي القاموس المحيط : " نسق الكلام: عطف بعضه على بعض ، والنَّسَق محركة ما جاء من الكلام على نظام واحد" [٣]، أما ابن فارس فيقول: " النون والسين والقاف أصل صحيح يدل على تتابع في الشيء وكلام نسق جاء على نظام واحد قد عطف بعضه على بعض وأصله قولهم : ثغر نسق ،إذا كانت الأسنان متناسقة متساوية) [٤] فالمعنى اللغوي يفيد وجود ترتيب منظَّم ومنسجم بين عناصر مترابطة، لا تُفهم إلا في إطار تكاملها وتواليها.

ثانيًا: النسق في الاصطلاح:

أمَّا في الاصطلاح، فقد تعددت تعريفاته باختلاف الحقول المعرفية، فهو يشير في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا إلى: "مجموعة من الأدوار والعلاقات والقيم

١ بطرس البستاني،محيط المحيط ١–٩ ج٩، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩م ، ص١١٥. ١١٦

٢ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ط، ٢٠٠٣م، مجلد ١٤، مادة نسق، ص١٦٥

٣ الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨،ج٣،مادة نسق،٢٠٠٥م ، ص ٢٨٥

٤ ابن فارس/ أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة ، دارصادر، بيروت،ط.٥,١٩٩٩م ، المجلد الخامس، ص٤٢٠

والمعايير الاجتماعية التي تنتظم سلوك الأفراد داخل المجتمع، وتشكل بنية المجتمع وتحقق تماسكه واستقراره."[١]

ويُنظر إلى النسق بوصفه وحدة تحليل كبرى، تتكوّن من عناصر مترابطة وظيفيًّا، بحيث يؤدي كل جزء وظيفة محددة تساهم في تحقيق التوازن والاستمرار للنظام الاجتماعي ككل.

وقد عرّف تالكوت بارسونز (TALCOTT PARSONS)، أحد أبرز رواد النظرية البنائية الوظيفية، النسق الاجتماعي بأنه: "نظام من الفاعلين يتفاعلون في إطار موقف اجتماعي تنظمه مجموعة من المعايير والقيم المشتركة."[٢]

وعلى ضوء هذا التعريف، يتبين أن النسق ليس مجرد إطار ثابت، بل هو كيان ديناميكي يخضع للتغير والتحول، ويتفاعل مع مختلف المتغيرات الثقافية والاقتصادية والسياسية.

ويمثل النسق الاجتماعي في الرواية البنية العميقة التي تنتظم فيها العلاقات بين الجنسين، أو بين الطبقات الاجتماعية، أو بين المركز والهامش، كما تُبرز التفاوتات الاقتصادية، وأنماط التنشئة، وتصورات الموت والحياة، والرموز الدينية، والممارسات اليومية. ومن خلال التحليل السوسيولوجي للرواية، يمكن الكشف عن الكيفية التي تُعيد بها الشخصيات إنتاج هذا النسق، أو التمرد عليه، أو التفاوض معه.

ويكتسب هذا المنظور أهميته في الروايات التي تتبنى على مشهد اجتماعي واضح، تتجلّى فيه ملامح البيئة المحلية بطبقاتها المتعددة، مثلما هو الحال في

---

١ علي ليلة ، النظرية الاجتماعية وقضايا المجتمع الكتاب الثانى، مكتبة الأنجلو المصرية،٢٠١٥م، ص١٥

٢ علي ليلة، النظرية الاجتماعية الحديثة: الأنساق الكلاسيكية، مكتبة الأنجلو المصرية ،٢٠١٤م ، ص٢٧

رواية السقا مات ليوسف السباعي، التي تُعد من أبرز الأعمال التي تُصوّر الحياة الشعبية في مصر في مطلع القرن العشرين، وتحفر في عمق المجتمع القاهري التقليدي من خلال شخصية السقا البسيط المعلم شوشة، في محاولة للكشف عن التفاعل الجدلي بين النسق الاجتماعي والمصير الإنساني. وصفها أحد النقاد وأقوى من الزمن بأنها «واقعية ورمزية» [١].

وعندما يعرض الدكتور محمد مندور لرواية " السقا مات " فيعلن أن يوسف السباعي أديب من أدباء الحياة بل من أدباء السوق التي تعج بالحياة والأحياء وتزدحم بالأشخاص والمهن [٢] . وقال أيضًا : (نلاحظ أن السباعي ينزل إلى السوق ، ويضربُ في الأزقة والدروب : ما بين درب القط إلى درب عجور إلى درب السماكين إلى غيرها من دروب الحسينية ، التي لا تعيها غير ذاكرة يوسف السباعي ويخالط سكانها حتى ليخيل إلينا أنه يعيش بينهم ، ويشاركهم حياتهم ويوشك أن يختلط بأفراحهم ومآسيهم وهو لذلك يوغل في وصف دقائق وأبعاد الحياة الشعبية داخل أسوار المدينة ...)[٣]. وقال مرسي سعد الدين في مقدمة كتاب «يوسف السباعي فارس الرومانسية» (إنه لم يكن مجرد كاتب رومانسي بل كانت له رؤية سياسية واجتماعية في رصده لأحداث مصر) [٤].

---

١ عماد الدين عيسى، يوسف السباعي: فلسفة قلم وحياة – الهيئة المصرية العامة للكتاب،، ١٩٨٧ م ، ص ١٦٣

٢ محمد مندور، تأسيس فنون السرد—وتطبيقاتها ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٨ م، ص٢٠٦

٣ المصدر السابق،الصفحة نفسها

٤ لوتس عبد الكريم ، يوسف السباعي: فارس الرومانسية، دار لوتس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م، ص٦

يأخذنا السباعي إلى عالمه الخاص، في جولة طويلة في شوارع القاهرة ليكشف لنا عن أسرارها وخفاياها ، فيبدي رغبة صادقة في إدخال القارئ إلى أجواء القصة، ليعيش تفاصيل المكان كما لو كان يراه بعينيه، غير أنه يشك في قدرة القارئ المعاصر على التفاعل مع تلك الربوع القديمة التي انقضى عهدها، وزال بهاؤها، وتهدمت قصورها. ورغم ذلك، لا يتردد الكاتب في محاولة اصطحاب القارئ في جولة مختصرة تمنحه تصورًا أوليًّا وسريعًا عن البيئة التي ستحتضن وقائع القصة أثناء قراءته لها.

يبدأ يوسف السباعي عرض الأحياء الشعبية والشوارع في القاهرة وكانت بدايتها (من شارع فاروق في منتصف المسافة بين ميدان فاروق وميدان العتبة) هذا الميدان قد توالت عليه أسماء عدة ويبدو لي أنَّ من الخير أن أسميه باسمه القديم؛ خشية أن يبدل اسمه الجديد باسم آخر ما بين كتابة هذه القصة وظهورها، حيث يقاطع الشارع الكبير شارع ضيقٌ يسير فيه الأتوبيس الذاهب إلى بيت القاضي وهو شارع البغالة، لنجعل وجهتنا إلى العتبة ثم ندلف يسارًا في شارع البغالة ونسير في الطريق الضيق المزدحم ..المليء بحوانيت البقالة والنجارين، وبائعي القباقيب، والصُّرماتية، والعطارين.. ولنكافح في شق طريقنا ..بين عربات الكارو، والحمير، وعربات اليد ، وباعة العرق سوس.. ولنتجاوز الدروب المقاطعة ،ومنها درب البزازرة ،ودرب عجور ..ولنتجاوز كذلك المسجدين القائمين على يسارنا.. وبذلك نكون قد قطعنا شارع البنهاوي، ووصلنا إلى الساحة الممتدة الفسيحة المترامية على مدى البصر، فنجد على يميننا " باب الفتوح" وهو أحد أبواب قاهرة المعز، القائم في سمك وضخامة ،وقد علته الأتربة، وبدا عليه البِلى والقِدم، وترامى حوله بقايا برسيم وروث بهائم ، وحشد من الغادين

والرائحين، والصبية اللاهين العابثين.. والباب يؤدي إلى وكالة الليمون والزيتون ، وإلى الطريق المفضي إلى النحاسين وبيت القاضي وسيدنا الحسين)[١]،

ثم يواصل السباعي رسم المكان في روايته بكل أبعاده الهندسية التي تلائم النسق الاجتماعي الذي تدور فيه أخداث الرواية، فالتفاصيل الدقيقة للمكان تكشف عن حركة الشخصيات وا وتأثرها بالمكان سلبًا وإيجابًا . يقول: (أما في الواجهة فتمتد الساحة حتى تنتهي بمقابر باب النصر التي يخترقها شارع رئيسي يسمى شارع النجوم، وهو مُفضٍ في النهاية إلى شارع العباسية، وقلم المرور ،وتحدد الساحة في الميسرة بشارع مرتفع يحده جرف مبطن بالطوب، وهوشارع القصاصين ،وينتهي بضريح صغير منعزل هو ضريح "ابن هشام" حيث أزيل ما حوله من قبور لتوسيع الساحة وبقي هو قائما وحده ليدل على سخف الأحياء في التفريق بين القيم الأموات الذين سواهم الله في باطن الأرض.

لندع الساحة، وباب الفتوح، وباب النصر جانبًا.. ولندلف يسارنا في أول درب يقابلنا في الساحة، درب قد كتب عليه لافتة تنبئ باسمه ،وهو" درب السماكين" وهو الدرب الموازي لشارع الحسينية، الذي يليه مباشرة على يسار الساحة.

الدرب طريق عادي ،من طريق الأحياء الشعبية القديمة بضيقه وقذارته، وبحوانيته القائمة على جنباته ودوره البالية العتيقة المتربة الجدران، العالية الأبواب، المتقاربة النوافذ حيث يد الساكن تكاد تمسك من خلالها بيد جاره.

وأرض الطريق قد كسيت بكتل البازلت المربعة المقلقلة التي جعلت الطريق أكثر وعورة مما لو ترك على حاله ..وأكوام القمامات قد تراكمت على جوانبه، تحيط بها المياه القذرة الآسنة.

١ يوسف السباعي، السقا مات، ص ٢

كل هذه المظاهر يتشارك فيها درب السماكين مع درب عجور، ودرب البهلوان، ودرب اسمه أيه، وبقية دروب القاهرة النظيفة المحترمة.. ولكن ذلك لا يمنع من أن يكون لدرب السماكين مجموعة من الظواهر المميزة والعلامات البارزة ،التي تميزه عن بقية الدروب.

أول هذه الظواهر_ كما سبق القول_ حنفية المياه القائمة على يمين الداخل بعد مسيرة بضع خطوات من مدخل الدرب؛ والحنفية بكشكها وصاحبها.. تحتل زاوية داخله في مباني الطريق، بحيث تكون الزاوية شبه ساحة صغيرة يحتشد فيها طلاب المياه.

فإذا عبرنا الحنفية وجدنا سورًا مُهدمًا يخفي ربوة خربة ، متربة مليئة بالقمامات والصفائح القديمة، وفي ركن من الربوة تربعت بضع قدور سود للفول المدمس وبجوارها وقف نفر لا تقل ملابسهم وجلودهم سوادًا عن قدر الفول.

ذلك هو "مستوقد الحسينية" القائم في ظهره "حمام الحسينية" الذي شيد مدخله في شارع الحسينية الموازي لدرب السماكين.

ويلي المستوقد بضع دور عتيقة وحوانيت ومدرسة أولية.. تقوم على أزقة قصيرة مغلقة، متفرعة من الدرب الأصلي كأنها فجوات شبيهة بحرف u.

فإذا دأبنا في السير داخل الدرب صادفَنا على اليسار منزلٌ شامخُ البناء، متينُ الجدران ذو باب ضخم مصفح بالحديد، قد انفرج عن مدخل عالي السقف.. ضيق الساحة، وبدا في ركن منه كوم أسود، يصعب تمييزه لأول وهلة في ظلمة المدخل.. ويخيل الإنسان في بأدئ الأمر، أنه منضدة" عتقى" وأدواته .. ولكن بإمعان النظر يتضح أنها أفران "بطاطة " قديمة قد وضعها الحداد المواجه للمنزل في مدخل المنزل ؛حتى لا يزدحم بها حانوته.

لِنعْبُرْ المدخل وندلف من الباب القائم على يمينه المفضي إلى فناء متسع خرب ..مليء بأكوام الحجارة والأتربة .

ومن الفناء يبدو لنا المنزل وما جاوره خرابًا في خراب وقفرًا في قفر، ويلفت نظرنا مئذنة عالية، تنبئ عن مسجد بجوار المنزل، أما المنزل نفسه فهو مثلٌ لعزيز قوم ذل.

إن الجدر الشامخة المتينة قد تشققت؛ حتى لتوشك أن تتقوض أركانها، والنوافذ قد تهاوت مصاريعها، وفاضت من حناياها ظلمة كئيبة كأنما هي نوافذ كهف خرب.. والشرفة المتسعة في الطابق الأول على يسار الداخل قد تآكل سلمها الرخامي وأحاطت به أكوام من صناديق خشبية فارغة قد أعدت لرص الكتب الصفراء التي صفت على حافة الشرفة.. والتي أخذ الحمالون في إخراجها من داخل المنزل.

أجل ! إنَّ ما بقي صالحًا للسكنى من المنزل الشامخ الضخم قد استؤجر كمخزن للكتب، وبذا حفظ المنزل إلى حد ما من المذلة والإهانة.. واستبقى له أثرًا من طيب أصله.. وسابق مجده.

وقد يلقانا صاحب مخزن الكتب بالترحيب، وقد لا يلقانا أصلًا.. ولن يضيرنا ذلك.. فليس بنا كثير حاجة إليه.. إنَّ الذي يهمنا فعلا هو ذلك الصبي "السقا" الذي حمل القربة على ظهره وأخذ يصب مياهها حول شجرة " تمر حنة" عالية مورقة .. هي كل ما تبقى من أثر الحديقة البائدة ..التي كانت تشغل الفناء.

هذا هو مسرح القصة كما يبدو الآن ..خربٌ مقفرٌ.. مُحطَّمٌ مُهدَّمٌ.. ليس به من سمات مجد باد، ومظاهر عزٍّ غبرَ، بقايا باهتة نلقاها هنا وهناك) [١].

إنَّ المكان أكثر التصاقًا بحياة الانسان، فوجود الإنسان لا يتحقق إلا من خلال علاقته بالمكان وعلى قدر إحساسه به يكون وعيه بذاته، بحيث يكون

١ يوسف السباعي، السقا مات، ص٤

العمل الروائي بناءً منسجمًا مع مزاج وطبائع شخصياتها وأن لا يتضمن أي مفارقة، وذلك أنه من اللازم (أن يكون هناك تأثير متبادل بين الشخصية والمكان الذي يعيش فيه إذ يصبح بإمكان الفضاء الروائي أن يكشف لنا عن الحالة الشعورية التي تعيشها الشخصية بل وقد تساهم في التحولات التي تطرأ عليها) [١].

مظاهر النسق الأسري والعلاقات الاجتماعية في رواية السقا مات:

تدور أحداث الرواية في عشرينيات القرن الماضي وسط أحياء شعبية تفوح بتقاليد مصر العتيقة بالتحديد في حي الحسينية حيث يقع صنبور المياه الحكومي القائم في زوايا درب السماكين يقف أمامه صف طويل عريض من النسوة ذات الصفائح والرجال ذوي القرب أحدهم هو المعلم شوشة بطل هذه الرواية الذي يجمع أفضل خصائص ابن البلد بشهامته ورجولته وكريم عنصرة ، رغم ضيق الرزق وكدح المهنة صلب العود رغم نحوله، متدين لسبب سوف ينضح فيما بعد . لا يُضيع الصلاة ، رزين طويل الصمت . يغلب عليه الحزن والتفكير ويولي اهتمامًا خاصًّا بشجرة التمر حنة في السراية المجاورة .

أما ابنه (سيد) فهو صبي في التاسعة من عمره ، لا يحب الكُتَّاب ، شديد الحيوية إلى حد التأثير في النفوس ، له عالمه الطفولي الساحر بمفرداته وتركايبه الغريبة، في مشاكسة الشيخ كفتة صاحب الكتاب الذي ذاق الويل من شقاوته .. وفي مشاكسة عم "جاب الله " حارس السراية ، وكذلك مشاكسته لعم سلامة صاحب المطعم، كما لم تسلم جدته من شقاوته رغم حبها الكبير له ، يتسلق أشجار السراية المثمرة ليلتقط البلح الأحمر والجوافة، يتزعم مجموعة من الصبية " حرشه وزكي

١ يورى لوتمان : مشكلة المكان الفني ، ترجمة سيزا قاسم دراز (ألف) مجلة البلاغة المقارنة ، القاهرة ، الجامعة الأميريكية ع ٦ ، سنة ١٩٨٦ م، ص ٨١

الحدق " ويجمعهم عند السبيل ليلعبوا البلي الذي يبرع في كسبه دائمًا، والكرة الشراب، أما مشكلته الكبرى في الحياة فهي غسيل الوجه بالصابون الذي يؤلم عينيه رغم إصرار جدته الكفيفة (أم آمنة) على غسل وجهه كل يوم بالصابون، أو عندما تطلبه للاستحمام .

كانت سعادته لا توصف حينما قرر أبوه المعلم شوشة إخراجه من الكتاب لتلقينه مباديء مهنة السقا كان فخورًا برجولته الوليدة ويحاول تقليد الكبار بلهجة رجولية خشنة مثيرا عاصفة من الضحك أينما ذهب .

تعكس رواية (السقا مات) بيئة أسرية بسيطة تنتمي إلى الطبقة الكادحة في الحارة المصرية، حيث يعيش المعلم شوشة، بطل الرواية، مع أم زوجته العجوز وابنه سيد، في بيت ضيّق متشقق، يحمل ملامح البؤس المادي، لكنه في الوقت ذاته يعكس دفئًا إنسانيًّا واضحًا في العلاقات التي تربط بين أفراد الأسرة. فالسرد الروائي يُظهر عمق العلاقة بين شوشة وأم زوجته، القائمة على الاحترام والبر بالوالدة، رغم ضيق الحال وقسوة المعيشة.

وتتجلى في شخصية شوشة ملامح الرجل الشعبي الكادح، الذي يعيل أسرته من مهنة شاقة تتطلب جهدًا جسديًّا متواصلًا، دون أن يشتكي أو يتذمر، بل يحتفظ بشيء من الحياء والخجل، حتى في تعامله مع فكرة الموت. أما ابنه سيد، فهو طفل يمثل الأمل في استمرار النسل، والرمز الطبيعي لدورة الحياة، كما تعكس علاقته بأبيه وأمه الحنان والبراءة في بيئة لا تملك من الرفاهية سوى الذكريات.

العلاقات داخل الحارة بوصفها امتدادًا للنسق الأسري

لا تقف الأسرة في الرواية عند حدود الدم والنسب، بل تمتد لتشمل الجيران وأهل الحارة، الذين يعيشون حياة تشاركية تسودها روح الجماعة، وتقاسم المعاناة اليومية. وتقوم العلاقات بين سكان الحارة على التراحم والتعاون، ولكنها في الوقت نفسه لا تخلو من التفاوت الطبقي، والنميمة، والتسلية بأخبار الآخرين.

إن النسق الاجتماعي داخل الحارة في الرواية يُقدَّم كنسق متماسك، له لغته، وسلوكياته، وعاداته، بل حتى وجباته المميزة (كغداء المعلمة زمزم مثلًا)، مما يعكس وحدة اجتماعية مصغّرة داخل نسيج المدينة الكبرى.

وتُظهر الرواية كيف يتعامل الناس مع بعضهم البعض وفق أدوار اجتماعية محددة سلفًا: فشوشة هو السقا الأمين، وشحاتة أفندي هو المتخصص في الجنائز، والمعلمة زمزم هي صاحبة الطعام الشعبي، ولكل شخصية وظيفة اجتماعية تُسهم في استقرار النسق العام.

العادات الاجتماعية والمهن التقليدية في بنية النسق الشعبي

تكشف رواية السقا مات عن جانب مهم من ملامح النسق الاجتماعي الشعبي في مصر مطلع القرن العشرين، وهو تشكل المجتمع حول مجموعة من العادات والمهن التقليدية التي لم تكن مجرد وسائل للعيش، بل كانت تمثل أدوارًا اجتماعية لها مكانتها واعتبارها في الوعي الجمعي.

١. حرفة السقا: رمز العطاء والنقاء

تُعد مهنة السقا من أبرز المهن التقليدية التي كانت سائدة في الأحياء الشعبية قبل دخول شبكة المياه إلى المنازل. وكان السقا يحمل قربته المصنوعة من الجلد، ويتنقّل بين البيوت، يملؤها من الساقية أو الحنفية العامة، ثم يوزع الماء على الأهالي لقاء أجر زهيد. ولم تكن هذه الحرفة مجرد عمل يدوي، بل كانت مُحاطة بهالة من الاحترام، لأن السقا كان يُعد واسطة الخير والعطاء، ينقل "الحياة" – أي الماء – إلى البيوت.

في الرواية، يتجسد ذلك بوضوح في شخصية المعلم شوشة، الذي يؤدي مهنته بجد وصمت وكبرياء، ويُضفي عليها الكاتب طابعًا رمزيًّا، فالسقا الذي يروي العطاشى ويمدهم بما يُبقيهم على قيد الحياة، هو نفسه مَن يواجه المصير المحتوم: الموت. وهنا تتجلّى المفارقة الفلسفية التي تنسجها الرواية بين وظيفة السقا الحياتية ونهايته الحتمية، مما يُضفي على النص طابعًا وجوديًّا عميقًا.

٢. معدِّد الجنازات (المطيباتي) وظيفة الموت والهيبة

أما الحرفة الثانية التي ترصدها الرواية فهي مهنة مُعدِّد الجنازات،(مطيباني جنازات) والتي يتمثلها في شخصية شحاتة أفندي، الرجل الذي يُرافق الجنائز، ويرتدي بدلة رسمية تُضفي على الموت "هيبة"، ويُعدد مناقب الموتى بطريقة تحفظ للميت كرامته، ولأهله عزاءهم الرمزي.

شحاتة أفندي، في «السقا مات»، شخصية متفردة فريدة في تاريخ الرواية المصرية، ذلك لأنه يحترف مهنة غير محبوبة، منقرضة، تثير النفور من صاحبها ولا تبدو مقبولة، أو مَرضيًا عنها عند الغالبية العظمى من الناس؛ مهنة المشي أمام الجنازة ليمنح المشهد هيبة ويؤكد على سمو المكانة الاجتماعية للموتى الذين يتجهون إلى مثواهم الأخير ، إنه «موصلاتي» كما يقول جادًّا ساخرًا في حواره مع المعلم شوشة السقا يقول: «– بوصل اللى انتهى.. لنهايته.. موصلاتى ذهاب بس مش ذهاب وإياب.. اللى أروح معاه ما يرجعش أبدا.. أسيبه وتنى راجع».

يلتبس الفهم على شوشة، فيضيف شحاتة أفندى شارحًا:

–(حاجة كده زى صبى حانوتى أو مطيباتي جنازات.

– مطيباتي جنازات؟

– أيوه.. أمشى قدام الجنازات من باب الافتخار والقيمة والنفخة.. نفخة الأموات.. أو آخر نفخة بيتمتع بها البنى آدم المغرور.

– أنت من اللى بيمشوا قدام الميتين؟

– ما فيش كلام.. يسمونا لفندية.. واحنا مافيناش من لفندية غير البدلة» [١].

هذه المهنة، وإن بدت غريبة اليوم، كانت تمثل آنذاك وظيفة اجتماعية معتبرة، تُسهم في تيسير طقوس الموت، وتضبط السلوك الجمعي في المواقف

١ يوسف السباعي، السقا مات،ص١٧٨_١٧٩

الجنائزية. وقد صوّر يوسف السباعي هذه الشخصية بقدر من السخرية الذكية والاحترام الضمني، فهو يُظهر شحاتة أفندي كمطيباتي متقدم في السن، له شغف بالطعام والمزاج، لكن حضوره في الجنازات يفرض احترامًا من نوع خاص، ويؤكد على الدور الرمزي للموت داخل النسق الاجتماعي.

٣. دلالات المهن في السياق الاجتماعي

تكشف هاتان المهنتان – السقا ومُعدِّد الجنازات – عن توازن دقيق بين عنصري الحياة والموت داخل المجتمع التقليدي. فكما أن هناك مَن يسقي الحياة (السقا)، هناك مَن يُشرف على وداعها (مُعدِّد الجنازات). ويعكس هذا الازدواج نسقًا اجتماعيًّا مترابطًا، حيث يُنظّم كل شيء، حتى الموت، عبر أدوار محددة لها قواعدها ومظاهرها وشخوصها.

ومن خلال هذه الشخصيات، ترصد الرواية كيف كانت المهن تُمثّل ركنًا من أركان الهوية الاجتماعية، لا يُقاس فقط بالمردود المادي، بل بالمكانة والوظيفة الرمزية داخل الجماعة. وهذا ما يجعل من السقا مات وثيقة سردية حية تنبض بروح البيئة المصرية في حقبة تاريخية ذات طابع تقليدي إنساني واضح.

الطقوس الاجتماعية اليومية: الطعام، اللعب، والجنازات

لم يكن المجتمع الشعبي الذي تصوره رواية السقا مات مجرد خلفية للأحداث، بل كان نسقًا متكاملاً من العادات والتقاليد التي تُمارَس يوميًا، وتشكل جوهر الحياة الجماعية. وقد برع يوسف السباعي في تقديم هذه الطقوس بتفاصيلها الدقيقة، لتكون جزءًا حيًّا من نسيج الرواية، يُعبر عن النسق الاجتماعي العميق الذي يحكم سلوك الأفراد ويوجه نظرتهم إلى الحياة والموت.

ينظر السعيد الورقي لمجموعة من المفاهيم الخاصة بالواقعية ومنها الواقعية التسجيلية التي يراها(تلك الصيغة من صيغ الواقعية التي حاولت أن تقدم تمثيلاً

موضوعياً للواقع الاجتماعي وذلك بالنفاذ المباشر في الحياة والواقع ، ذلك النفاذ الذي يتقبل الأشياء كما تبدو لنا في الظاهر)[١]. وتتمثل هذه الظواهر في :

١. الطعام: هوية وهوى

يشغل الطعام في الرواية حيزًا مهمًا، ليس بوصفه حاجة بيولوجية فقط، بل كجزء من الثقافة اليومية التي تُعبّر عن مستويات الرضا أو الإحباط، الفقر أو الترف، الحب أو النفور. ويتجلى ذلك في علاقة الطفل "سيد" بوجبة الغداء، التي كانت تعدّها "المعلمة زمزم"، سيدة الحارة القوية وصاحبة الحضور، فحين يكون الغداء مشهيًا، يشعر سيد بالسعادة، أما إذا كان الغداء بطيخًا وجبنة، يشعر بالغضب وخيبة الأمل. هذه التفاصيل تعكس بساطة الحياة، لكنها في الوقت ذاته تكشف عن موقع الطعام في الذاكرة الجماعية والوجدان الشعبي، وعن علاقته الوثيقة بالمزاج والكرامة.

٢. اللعب: عالم الطفولة وسر البهجة

أما اللعب، وخاصة لعبة "البلي" وكرة القدم، فقد شكّل مساحة حرة للطفل سيد وأقرانه، يتنفسون من خلالها الفرح ويعبّرون عن طاقتهم الطفولية في وسط اجتماعي تضيق فيه الخيارات. ويعكس حضور اللعب في الرواية أن النسق الاجتماعي لم يكن قمعيًّا بالكامل، بل يسمح بمساحات من الانفراج والبراءة، رغم الفقر وضيق المعيشة. وقد استخدم الكاتب هذه الطقوس الطفولية ليخلق توازنًا دراميًّا بين ثقل الموت وفرح الحياة.

١ السعيد الورقي ، اتجاهات الرواية العربية المعاصرة، دار المعرفة الجامعية . الاسكندرية: ص٧٨.

٣. الجنازات: طقوس الموت وهيبة الوداع

في مقابل طقوس الطعام واللعب، تأتي طقوس الموت في الرواية بوصفها ذروة تماسك النسق الاجتماعي، إذ تُعقد الجنازات وفق تقاليد صارمة، يشارك فيها كل سكان الحارة، وتُهيَّأ لها الأدوار بدقة: حضور شحاتة أفندي، يرتدي بذلته السوداء ويلبس الفوطة الحمراء على وسطه ويمسك في يده القمقم ويمشي أمام الجنازات من باب الافتخار حتى يزف الميت لمدفنه بعدها ينال نصف ريال من متعهد الجنازات . كان وقع ذلك تقيلا على المعلم شوشة الذي بدأ يشعر بالرهبة من صديقه المخيف الذي حاول شرح فلسفته الخاصة عن الموت والحياة. (إن وجه الأرض متغير وكل الكائنات محدود أجلها ببداية ونهاية هذا المقعد ، تلك اللبلابة ، هذه القطة، هذا الجلباب، لكن الإنسان يتملكه الغرور فلا يريد أن يذهب في هدوء ويأبى أن يقارن نفسه بالقطة والمقعد والجلباب ،يكره الموت ويأبي قبوله ويرفض تعوده وترويض نفسه عليه)[١].

ومن طقوس الموت الأخرى ترتيل الأدعية، لبس الأسود، نواح النساء، وإظهار الحزن الجمعي. فالموت في المجتمع الشعبي ليس مسألة فردية، بل حدث جماعي يُستدعى فيه التاريخ والهيبة، وتُفعَّل خلاله شبكة القيم والواجبات، مما يوضح كيف يكون النسق الاجتماعي حاضرًا حتى في الفقد، مُنظمًا للسلوك وموجّهًا للانفعالات.

٤. النساء والكيف

ومن العادات الاجتماعية السلبية التي رصدها يوسف السباعي بدقة في روايته "السقا مات" مظاهر الانحلال الأخلاقي التي تمثلت في وجود نساء الهوى وأوكار الكيف، حيث أشار إلى وجود هذه الفئة التي تعيش على هامش المجتمع

١ يوسف السباعي ، السقا مات، ص

وتمارس سلوكيات تتنافى مع القيم الدينية والأخلاقية. وقد عرض الكاتب هذه الفئة لا بدافع التشهير أو الإثارة، بل في إطار نقد اجتماعي ينبّه إلى تفشي بعض الظواهر التي تهدد تماسك المجتمع وتكشف عن خلل في منظومته القيمية. وقد برزت شخصيات مثل زمزم – صاحبة المسمط – بوصفها تمثل شريحة رمادية تعيش بين الطهر والانحراف، وتدل على حالة التداخل الطبقي والأخلاقي التي كانت تميز المجتمع المصري في تلك الفترة.

وها هو المعلم شحاتة (صار يعشق الكيف والنساء والطعام الجيد ، ويعيش اليوم بيومه دون أن يحمل هم الغد . ويتعجب جدًّا من قهر المعلم شوشة لرغباته متسائلًا : ما جدوى الحياة بدونها ؟.

وبرغم إفلاسه الشديد فقد كان مستعدًا أن يدفع خمسين قرشًا كاملة _وهو مبلغ كبير في تلك الفترة _من أجل سهرة حمراء مع عزيزة نوفل ذات الجسد الممتلئ الملتف في ملاءة تنحسر عن ثوب أحمر ، ظهرت منه ذراعان بيضاوان ناصعا البياض وكشفت فتحة الصدر عن ملتقى الثديين المكتنزين فإذا ولت وجهها بدا ظهرها أشد تفصيلًا وتفسيرًا وإقناعًا وإغراءً واستدعاءً من أجلها تفاوض مع القوَّاد صاحب الشارب المفتول ، وذهب للعطار ليشتري جوزة الطيب وعود قرح وساوم الجزار على رطل كلاوي بتلو و(توضيبة) من المخاصي والمواسير ، واقترض قطعة حشيش من زميله الشيخ سيد مخزن المخدرات المتنقل الذي يجلس ويتحرك ويتكلم وكأنه في غيبوبة دائمة.. (خبَط) عدة جنازات مهلكة من مصر القديمة للمجاورين حتى هدَّه التعب فنام قليلًا ليستريح استعدادا لسهرته) [١].

١ يوسف السباعي، السقا مات، ص

النسق الطبقي في الرواية: صراع المستويات الاجتماعية

تكشف رواية السقا مات عن البنية الطبقية الصارخة التي كان يقوم عليها المجتمع المصري في النصف الأول من القرن العشرين، وهي بنية ثلاثية واضحة المعالم: طبقة عليا مترفة، وطبقة دنيا مسحوقة، وطبقة برجوازية صاعدة. وقد نجح يوسف السباعي في تصوير هذه الطبقات من خلال الشخصيات والمواقف اليومية التي ترصد الفروقات الدقيقة في العيش والكرامة والعمل والمكانة.

١. الطبقة العليا: الحياة في السرايات

تُمثَّل الطبقة الثرية في الرواية من خلال أولئك الذين يسكنون "السرايات"، حيث تنعم ببيوت واسعة وحدائق غنّاء، ويأتيها الماء من غير عناء عن طريق السقا الذي يُسقى الزرع ويملأ الأزيار دون أن يشعر أهل السراي بتعب أو حرمان. ويمثل السقا هنا عنصر خدمة خفيًّا، يظل في الظل، لا يُنظر إليه بوصفه إنسانًا له مشاعر، بل بوصفه وسيلة وظيفية لضمان الراحة والاستقرار للطبقة الثرية.

٢. الطبقة الدنيا: كدحُ الحياة في الحواري

في مقابل تلك الصورة المترفة، تُجسّد الرواية معاناة الطبقة الكادحة من خلال شخصيات مثل شوشة السقا وشحاتة أفندي معدد الجنازات، حيث يعيشان في الأزقة الضيقة، ويكسبان رزقهما بشق الأنفس، وسط فقر مادي مدقع، وأعباء اجتماعية ونفسية متراكمة. شوشة يسقي الناس ويُرهق نفسه يوميًّا مقابل قوت بالكاد يسد الرمق، في حين أن شحاتة أفندي يواجه الموت كل يوم كمصدر رزق، لا كمصير يُهاب.

هذه الطبقة لا تنعم بالراحة، بل تُكابد الحياة بالكدّ والمعاناة، وتعيش في منازل متشققة متهالكة، وتعتمد على قيم التكافل البسيطة داخل الحارة، وتُمارس الطقوس الجماعية كوسيلة للبقاء المعنوي في وجه التهميش المادي.

٣. الطبقة البرجوازية الصاعدة: زمزم نموذجًا

تقدم الرواية نموذجًا لطبقة وسطى أو برجوازية صغيرة، تتمثل في شخصية المعلمة زمزم، صاحبة "المسمط"، والتي تجمع بين الحضور الاجتماعي القوي، والقدرة الاقتصادية النسبية. فهي ليست من طبقة السرايات، لكنها كذلك ليست من طبقة شوشة أو شحاتة، بل تتموضع بينهما، وتُجسّد التحول الطبقي التدريجي الذي بدأ يظهر في تلك الفترة، نتيجة اشتغال بعض الأفراد بالتجارة أو الأعمال الحرة، ما أتاح لهم تحسين أوضاعهم دون انتمائهم الفعلي للطبقة الأرستقراطية.

تمثل زمزم سلطة رمزية في الحارة، صوتها مسموع، وطعامها مرغوب، وهي تعيش في مكان أفضل، وتتعامل مع الجميع بقدر من التعالي أحيانًا، دون أن تنفصل عن جذورها الشعبية. وهكذا تُبرز الرواية ظهور طبقة ثالثة وسطى أخذت في الصعود، مما يُغني صورة النسق الاجتماعي ويُضفي عليه واقعية تاريخية دقيقة.

أولًا: العادات الاجتماعية في رواية (السقا مات)

"السقا مات" رواية اجتماعية واقعية، تنطوي على حكمة عميقة وعبرة مؤثرة. فالسقا، ذلك الرجل الذي يسقي الناس ماء الحياة، ينتهي به المطاف إلى الموت، في مفارقة تحمل في طياتها رمزية غنية لا ينبغي أن تُفاجئ القارئ، بقدر ما تدفعه إلى التأمل في دورة الحياة والموت. لكن الرواية لا تُختزل في موت السقا، بل تمتد لتعرض ملامح حياة نابضة لأناس الحارة، وعلى رأسهم المعلم شوشة، وابنه سيد، وشحاتة أفندي، وأم آمنة، وغيرهم من سكان الحارة، كبارًا وصغارًا، ممن يشكّلون فسيفساء اجتماعية مفعمة بالحيوية.

وأول هذه الظواهر حنفية المياه القائمة على يمين الداخل بعد مسيرة بضع خطوات من مدخل الدرب؛ والحنفية بكشكها وصاحبها.. تحتل زاوية داخله في مباني الطريق، بحيث تكون الزاوية شبه ساحة صغيرة يحتشد فيها طلاب المياه.

فإذا عبرنا الحنفية وجدنا سورًا مُهدمًا يخفي ربوة خربة ، متربة مليئة بالقمامات والصفائح القديمة، وفي ركن من الربوة تربعت بضع قدور سود للفول المدمس وبجوارها وقف نفر لا تقل ملابسهم وجلودهم سوادًا عن قدر الفول.

ذلك هو "مستوقد الحسينية" القائم في ظهره "حمام الحسينية" الذي شيد مدخله في شارع الحسينية الموازي لدرب السماكين.

أمَّا عم شوشة، السقا الكادح، فهو نموذج للإنسان الذي يصارع الحياة بصبر ومثابرة، ويخشى الموت رغم قربه الدائم منه. لكنه، في تناقضٍ دال، يستضيف في بيته المتواضع شحاتة أفندي، الرجل الذي يحترف مرافقة الجنائز ويمنحها "هيبة" ببذلته الرسمية، فيحمل بذلك رمزية مزدوجة بين الوقار والسخرية، وبين الموت بوصفه نهاية، والحياة بوصفها استمرارًا. إنه "المبصبصاتي" العجوز، ذو المزاج الخاص والشغف باللحم بأنواعه، الذي يمشي بين الموتى والأحياء بلا فاصل.

ثانيًا: الأماكن الاجتماعية في رواية (السقا مات).

١-**البيت:** يحمل معاني السكن والاستقرار لساكنيه، فهو المكان الوحيد الذي مهما ابتعد عنه الإنسان يعود إليه عن رضا و طواعية، باعتباره يمثل عالمه الذاتي الذي يسكن إليه لهذا سمي بالمسكن لتضمنه الراحة والطمأنينة .

في قلب الحارة، وتحديدًا داخل البيت المتشقق الذي يضم شوشة وأمه وابنه سيد، تنبض الحياة رغم قسوة الفقر وضيق المكان، وتُروى حكايات الطفولة والبراءة من خلال ألعاب "البلي" وكرة القدم، وتفاصيل يومية تنبض بالدفء، كفرحة الغداء الذي تعدّه المعلمة زمزم، أو خيبة الأمل حين يكون الطعام بطيخًا وجبنًا فقط. كل ذلك يُروى بعين راصد محب، تحنو على التفاصيل الصغيرة التي تصنع جمال الحياة.

وكان للبيت أهمية كبرى في رواية السقا مات ؛ فقد شهد ولادة(سيد) رمز الحياة بالنسبة لأبيه، وشهد موت(آمنة) زوجة شوشة، وشهد موت(شحاتة أفندى) وانهار على(المعلم شوشة) نفسه.

٢–السراية الكبيرة:

تُعد السراية الكبيرة في رواية (السقا مات)، رمزًا جليًّا للطبقية الاجتماعية؛ إذ تعكس عزلة طبقة الباشوات عن عامة الناس، لا من حيث المسكن فقط، بل من حيث أنماط المعيشة والتفاصيل اليومية أيضًا.

فالسرايات لا تُبنى في الأحياء الشعبية، بل تُقام في مناطق خاصة، محاطة بأسوار حديدية عالية، ويقف على بواباتها الحرس، في دلالة على انفصال تلك الطبقة عن الشارع الشعبي وهمومه.

كما أن سيدات هذه السرايات لا يخرجن لجلب الماء من الحنفيات العمومية كغيرهن من نساء الحارة، وإنما يُرسل إليهن السقّا، الذي يؤدي دور الوسيط بين عالمين متباعدين؛ عالم الفقر والشقاء، وعالم الرفاه والانغلاق الطبقي.

وهكذا تصبح السرايا في الرواية علامة معمارية وسردية على تمايز اجتماعي صارخ، وعلى بنية طبقية تفرض نفسها حتى في أبسط تفاصيل الحياة اليومية.

٣_الكُتَّاب:

يمثل الكتاب بالنسلة لسيد ورفاقه السجن الذي يذهب إليه لقضاء عقوبة على جريمة ارتكبها،فعندما كسر زجاج(السراية) جرى بسرعة إلى البيت ليأخذ أدواته ويذهب إلى الكتاب قال لجدته : (_أنا عارف أنها حاترسي في الآخر على إني أروح الكُتَّاب .. قلت: يا واد خدها من قصيرها وريح من نفسك .. فين الصندل والطربوش واللوح الصفيح ؟.

_ أهَمْ مَطْرَح ما بترميهم .. يعني حيروحوا فين ؟ ..أنا لابعرف أقرأ ولا أكتب)[١].

١ يوسف السباعي، السقا مات،ص ١١١

٤-**المسمط** :

مكان أكل خاص بمتعلقات الحيوانات التي تؤكل مثل: الرأس والطحال، والجوهرة(العين)،والكبد والكلاوي. تملكه الحاجة (زمزم)، يعمل معها فيه صبيها(جاد) القزم المكروه.

في مسمط الحاجة زمزم بدرب عجور كان تعرفهما على شحاتة أفندي ذلك الكهل لطيف الملامح بشوش الوجه الذي يرتدي جلبابا من الدمور وجاكتة قديمة . وفي قدميه حذاء بال مربوط بالدوبارة وفوق رأسه طربوش أسود منهار الجوانب مائل على حاجبه الأيسر في عياقة لا تتناسب مع مظهره المثير للرثاء .

وكان ذلك الرجل الذي لا يملك من مظاهر الأفندية غير الطربوش والجاكلة لا يكف عن مغازلة الحاجة زمزم بتلعيب حواجبه بطريقة آلية منتظمة مادًا رأسه في شبه أسف وطرب : يا ميت ندامة على اللي حب ولا طالشي!.

تأثير تلك المغازلة على المعلمة الضخمة الجثة كان ظاهرا بتمايلها طربًا وضحكتها الناعمة نسبيا وهزة رأسها المعصوب بعلامة الرضا.

لكن ذلك لم يشفع له وقت الجد حينما تبين إفلاسه عند دفع الحساب ولم ينقذه من براثن المعلمة المخيفة غير شهامة المعلم شوشة الذي دفع له حسابه لتنشأ علاقة صداقة متينة منهما تصل إلى حد استضافته في الدار.

٥-**المطعم**

تحديدًا (**مطعم الأمرا**): صاحبه عم سلامة ، وضع على واجهته لافتة كبيرة.. كتب عليها "فول الأمرا"، يقدم للناس الفول والطعمية، وكان سيد يشاكس عم سلامة كلما ذهب ليشتري منه .

وجاء دور سيد وقبل أن يمد يده بالطبق صاح بعم سلامة :

_ الفول كويس؟

_ ورْد.

_ مستوي ؟

_زبده.

طيب هات طعميه .

ويبدأ "عم سلامة" في عد الطعمية ولكن "سيد" يراجع نفسه بعد لحظة ويصيح بالرجل :

_ والا أقول لك هات فول) [١].

٦_**المقهى** : وهو من أهم الأماكن في رواية السقا مات، بل قد يكون في جميع الروايات الواقعية المصرية، فهو ملتقى شعبي لجميع فئات الشعب، فيه يلعبون الطاولة والدومينو والشطرنج، ويتبادلون الحكايات الاجتماعية، وأحيانًا الأمور السياسية والدينية.

٧_الحَمَّام العام:

من الأماكن الاجتماعية التي ظهرت في الرواية، وقد بدا الحمام بنوافذه ذات القضبان الحديدية المتقاطعة والضلف الخشبية المغلقة التي علتها الأتربة وخيمت عليها العناكب ،وفوق الباب قد وضع مصباحان زجاجيان عُلِّق كلٌّ منهما في أحد الأجناب .

جاء تصوير المكان الاجتماعي في رواية السقا مات موفقًا ومعبرًا عن هذه الجدلية خاصة في تجاور مشاهد الماء الجاري من الحنفية أو القِربة إلى الناس والبيوت والنباتات والأشجار مع مشاهد الجنازات والمقابر.(فهو يصور شخصياته في عالمها المكاني الثابت الذي بلغ فيه الزمن حد التوازن فهو يجعلنا نحس بحياتهم، وبحياتهم وحدها،لا بذلك المصير الثنائي وهكذا لم تعد رواية «السقا مات» مجرد صورة لحى شعبى بقدر ما تصور المجتمع المصرى نفسه فهي

١ يوسف السباعي، السقا مات ،ص ٢٤

لا ترينا كيف كان الناس يعيشون في الأحياء الشعبية فحسب ، وإنما ترينا الطبيعة المصرية في حياتها وسلوكها) [١].

للمكان أهمية كبرى في تأطير المادة الحكائية وتنظيم الأحداث؛ إذ يرتبط بخطية الأحداث السردية، بحيث يمكن القول بأنه يشكل المسار الذي يسلكه تجاه السرد. (وهذا التلازم في العلاقة بين المكان والحدث هو الذي يعطي للرواية تماسكها وانسجامها ويقرر الاتجاه الذي يأخذه السرد لتشييد خطابه، ومن ثم يصبح التنظيم الدرامي للحدث هو إحدى المهام الرئيسية للمكان[٢].

إنّ القول بأنّ "التلازم في العلاقة بين المكان والحدث هو الذي يعطي للرواية تماسكها وانسجامها..." يشكّل مدخلاً نقديًّا بالغ الأهمية لفهم دينامية السرد في رواية السقا مات. فالمكان في هذه الرواية لا يؤدي دور الخلفية الساكنة أو المحايدة، بل يتحوّل إلى عنصر فاعل في تشكيل الحدث، بل وتوجيهه.

ولأن النسق الاجتماعي في الرواية يتأسّس على جدلية الحياة والموت، نجد أن الأمكنة – من الحارات الشعبية، إلى بيت السقا، إلى فضاءات الجنازات والمقابر – تحتضن هذا النسق وتعيد إنتاجه عبر تفاصيل الحياة اليومية.

وهكذا يصبح المكان حاملاً للمعنى الاجتماعي والرمزي، يوازي الحدث ويسايره، بل يوجهه أحيانًا. وهذا التفاعل العضوي بين الحدث والمكان يعكس وعيًا سرديًّا لدى الكاتب شُيِّدَت من خلاله بنية الرواية، فغدت موحّدة متماسكة لا تترك للقارئ مجالًا للإحساس بالتفكك أو الانفصال. بل إن التنظيم الدرامي للحدث، حين ينبني على خصائص المكان وطبيعته، يسهم في إضفاء طابع

١ عبدالعزيز شرف، الفن الروائي والوعي الأخلاقي · دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٩٣ · – ص ٧٩

٢ فارس البيل · الرواية الخليجية: قراءة في الأنساق الثقافية، دار الأكاديميين، عمان، الأردن٢٠١٦ م – ص٢١٧

قدري على الأحداث، ويكرّس شعور الإنسان الشعبي بأن للمكان سلطة خفية تشارك في صناعة مصيره.

لذا يمكن القول: إن السقا مات، من خلال هذا التلازم بين المكان والحدث، تُقدّم خطابًا اجتماعيًا عميقًا يتجاوز ظاهر الحكاية، ليكشف عن بنية اجتماعية مشبعة بهاجس الفقد والموت، يُعاد إنتاجها من خلال المكان بوصفه فضاءً رمزيًا وثقافيًا يعبّر عن المخاوف والرغبات الجمعية في آن.

خاتمة

تكشف رواية (السقّا مات) ليوسف السباعي عن أبعاد اجتماعية عميقة تتجاوز ظاهر الحكاية، حيث يوظّف الكاتب شخصية السقّا البسيط ليجعلها مرآة للمجتمع المصري في فترة ما قبل التحولات الكبرى. ومن خلال تتبع مسار الأحداث والشخصيات، أمكننا الوقوف على أهم النتائج المرتبطة بالنسق الاجتماعي:

١. الموت كحقيقة اجتماعية : لم يقدّمه السباعي بوصفه نهاية فردية فقط، بل كقيمة راسخة في وعي الجماعة، تتحكم في الطقوس والعادات الشعبية، وتؤطر العلاقات بين الأحياء أنفسهم.

٢. البنية الطبقية للمجتمع : أضاءت الرواية الهوة الفاصلة بين الطبقات الكادحة والطبقات العليا، حيث ظل السقّا وأمثاله أسرى للفقر، بينما تشكّلت علاقاتهم بالآخرين في ضوء هذا التفاوت.

٣. العلاقات الإنسانية البسيطة: أبرزت الرواية التضامن الشعبي والمساندة في لحظات الفقد، بما يعكس تماسك النسيج الاجتماعي رغم قسوة الظروف المعيشية.

٤. الاغتراب واليأس: عكس السقّا إحساس الإنسان المقهور الذي يعيش على الهامش، فيُحاصر بين معاناة الرزق وهاجس الموت، وهو ما يفضح خللاً اجتماعياً أعمق.

٥. النسق النقدي الضمني: عبر لغة سردية شفافة، مارس السباعي نقداً للواقع الاجتماعي، مبرزاً هشاشة البنية الاقتصادية والاجتماعية التي تجعل الفرد أسير الخوف والانتظار.

وعليه، فإن(السقّا مات) ليست مجرد رواية عن الموت، بل هي نص اجتماعي في المقام الأول، استطاع يوسف السباعي من خلاله أن يقرأ المجتمع المصري قراءة داخلية تكشف عن قيمه وموروثاته، وعن صراعاته الطبقية والوجودية معاً.

المصادر والمراجع

١. ابن فارس/ أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة ، دارصادر ، بيروت،ط.١٩٩٩,٥م ، المجلد الخامس
٢. ابن منظور ، لسان العرب، دار صادر ، بيروت، د.ط، ٢٠٠٣م، مجلد ١٤، مادة نسق
٣. بطرس البستاني،محيط المحيط ١–٩ ج٩، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩م
٤. السعيد الورقي ، اتجاهات الرواية العربية المعاصرة، دار المعرفة الجامعية ،الاسكندرية، ١٩٨٢م
٥. عبدالعزيز شرف، الفن الروائي والوعي الأخلاقي · دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٩٣ ·
٦. علي ليلة ، النظرية الاجتماعية وقضايا المجتمع الكتاب الثانى، مكتبة الأنجلو المصرية ،٢٠١٥م
٧. علي ليلة، النظرية الاجتماعية الحديثة: الأنساق الكلاسيكية، مكتبة الأنجلو المصرية ،٢٠١٤م
٨. عماد الدين عيسى، يوسف السباعي: فلسفة قلم وحياة – الهيئة المصرية العامة للكتاب،، ١٩٨٧ م
٩. فارس البيل · الرواية الخليجية: قراءة في الأنساق الثقافية، دار الأكاديميين، عمان، الأردن٢٠١٦ م
١٠.الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨،ج٣،مادة نسق،٢٠٠٥م
١١.لوتس عبد الكريم ، يوسف السباعي: فارس الرومانسية، دار لوتس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م
١٢.محمد مندور، تأسيس فنون السرد—وتطبيقاتها ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٨ م
١٣.يورى لوتمان : مشكلة المكان الفني ، ترجمة سيزا قاسم دراز (الف) مجلة البلاغة المقارنة ، القاهرة ، الجامعة الأميريكية ع ٦ ، سنة ١٩٨٦ م
١٤.يوسف السباعي ، السقا مات، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ م .